

في ظلال القرآن

سورة النصر

مدنية . . وآياتها ثلاث

سيد قطب

منبر
التوجه والجهاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

+ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ 1 وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا 2 فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا 3 _

| | |

هذه السورة الصغيرة .. كما تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا؛ وكما توجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار ..

كما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه .. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، والانطلاق والتحرر .. هذه القمة السامقة الوضيئة، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام. ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلي هذا الهدف العلوي الكريم.

| | |

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية لإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكسر في آخر أمره من قوله: " سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه وقال: إن ربي كان أخبرني أنني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا؛ فقد رأيتها .. " إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا " ..

[ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص] ..

وقال ابن كثير في التفسير: والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة. قولوا واحدا. فإن أحياء العرب كانت تتلوم [أي تنتظر] بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام والله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما

كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي .. " الحديث " ..

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة: " إذا جاء نصر الله والفتح .. الخ " فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيحييء بعد ذلك، مع توجيه النبي ﷺ إلى ما يعمل عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة.

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس؛ لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: " إذا جاء نصر الله والفتح؟ " فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ " فقلت لا. فقال: ماتقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: " إذا جاء نصر الله والفتح " فذلك علامة أجلك " فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً " . فقال عمر ابن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول [تفرد به البخاري] .

فلا يمتنع أن يكون الرسول ﷺ حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل، وأنه سيلقى ربه قريباً. فكان هذا معنى قول ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له .. الخ ..

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي - بإسناده - عن ابن عباس كذلك: قال: لما نزلت: " إذا جاء نصر الله والفتح " .. دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: " إنه قد نعت إلي نفسي " فبكت. ثم ضحكت. وقالت أخبرني: أنه نعت إليه نفسه فبكت، ثم قال: " اصبري فإنك أول أهلي لحوقاً بي " فضحكت.

ففي هذا الحديث تحديد لتزول السورة. فكأنها نزلت والعلامة حاضرة. أي أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجا قد تحقق. فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ﷺ أنه أجله .. إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقاً مع ظاهر النص القرآني. وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى تتفق مع هذا الذي نرجحه .. عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دعا رسول الله ﷺ فاطمة عام الفتح فناجها، فبكت، ثم ناجها فضحكت. قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها

وضحكها. قالت: أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت، فبكيت، ثم أخبرني أبي سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران. فضحكت .. [أخرجه الترمذي].

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني، ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه. من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ﷺ وربه هي: " إذا جاء نصر الله والفتح " .. فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاءه لربه فناجى فاطمة رضي الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضي الله عنها.



ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذي جاءت به هذه السورة الصغيرة ..
فإلى أي مرتقى يشير هذا النص القصير:

" إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك
واستغفره، إنه كان توابا " ..

في مطلع الآية الأولى من السورة إيجاء معين لإنشاء تصور خاص، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، وما يقع في هذه الحياة من حوادث. وعن دور الرسول ﷺ ودور المؤمنين في هذه الدعوة، وحدهم الذي ينتهون إليه في هذا الامر .. هذا الإيجاء يتمثل في قوله تعالى: " إذا جاء نصر الله .. " .. فهو نصر الله يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره. في الصورة التي يريدتها. للغاية التي يرسمها. وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد. وليس لإشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراسا، ويجعلهم عليه أمناء .. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا ..

وبناء على هذا الإيجاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم. إن شأنه - ومن معه - هو الإتجاه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار في لحظة الانتصار.

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه. وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحته على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائق العميم، بعد العمى والضلال والخسران.

والاستغفار لملايسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري. فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر .. من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصر، وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر: " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب " (1) فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره. فجهد الإنسان، مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان .. " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " .. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار ..

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار .. ففيه إيجاء للنفس واشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها. وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور ..

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والإتجاه إلى الله طلبا للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين. ليرقب المنتصر الله فيهم، فهو الذي سلطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصر. وإها سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو. والنصر نصره، والفتح فتحه، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور.



إنه الأفق الوضيء الكريم، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه، وترقى في مدارجه، على حدائه النبيل البار. الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه، وترف فيه روحه طليقة لاهما تعنو لله!

(1) سورة البقرة: آية 214



إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحا من روح الله. ليس لها حظ في شيء إلا رضاه. ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق؛ وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة؛ وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة، بانية عادلة خيرة، .. الإتجاه فيها إلى الله.

وعبثا يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته، مقيد برغباته، مثقل بشهوته. عبثا يحاول ما لم يتحرر من نفسه، ويتجرد في لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده. وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما ..

كان هذا هو أدب يوسف - عليه السلام - في اللحظة التي تم له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: " ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا، وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا. وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي. إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم " ..

وفي هذه اللحظة نزع يوسف - عليه السلام - نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسيح الشاكر الذاكر. كل دعوته وهو في أمة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام:

" رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما، وألحقني بالصالحين " .. وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده. من فضله ومنه وكرمه ..

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: " فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم " ..

وهذا كان أدب محمد ﷺ في حياته كلها، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له .. انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة. مكة التي آذته وأخرجته وحاربتة ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة .. فلما أن جاء نصر الله والفتح، نسي فرحة النصر وانحنى انحناء الشكر، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار. وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده، عليهم السلام أجمعين.



وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله، وهكذا أشرقت وشفقت ورفرفت، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق ..



هذه دعوتنا

| دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله ﷺ بتجريد المتابعة له.

| دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

| دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

| دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنمى علماء الحكومات، بنذ تقليد الأحرار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها.

| دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم + قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ _

| دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

| ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

منبر التوحيد والجهاد

www.alsunnah.info

www.tawhed.ws

www.almaqdes.com